قومية - دينية، حيث يتم فقط الاستناد إلى الجسم الاجتماعي في الجماعة القومية - الدينية التي كانت مهمشة ومضطهدة من قبل الأكثرية السنهالية - البوذية لتحقيق المطالب التي تراوحت بين الانفصال والحكم الذاتي في أثناء التمرد العنيف لأعوام 1983-2009 بالشمال والشمال الشرقي من سريلانكا. أيضاً يمكن أن نجد في الهند أحزاباً ذات طابع فئوي تمثيلي لفئة، مثل المنبوذين، وهي قوية في ولاية «أوتار براديش»، مثلاً.

في المسار التاريخي تطفو أشكال سياسية وتخبو أشكال أخرى، في عراق 1959-1963 كان الصراع يأخذ شكل صراع بين الشيوعيين والعروبيين، رغم تركز الشيوعيين، كشكل سياسي، في الوسطين الشيعي والكردي، فيما كان البعثيون يستندون كقاعدة اجتماعية إلى السنة العرب. اضمحل هذان الشكلان وظهرا ضعيفين في مرحلة ما بعد سقوط بغداد بيد المحتل الأميركي يوم 9 نيسان 2003 لتظهر التعبيرات العارية للشيعة والأكراد والسنة العرب بوصفها الأشكال السياسية الأقوى تعبيرياً، وهذا ما ترجم في الانتخابات البرلمانية المتلاحقة منذ عام 2005. عبّر هذا المسار العراقي عن أزمة اندماج اجتماعي وضحت فيها عوامل اللااندماج أكثر من الاندماج، وهذا ما أفرز أشكالاً تعبيرية سياسية تعبر عن هذا أحياناً بشكل تصادمي عنيف (تمرد الملا البرزاني 1961-1970، 1973-1975، وصدام حزب الدعوة مع حكم صدام حسين في نيسان 1980، و«القاعدة» و«داعش»).

لا يعبّر هذا عن «تطور رجعي» أو عن «تخلف المجتمع» بل عن مشكلات لم تحل بعد وهي تطل برأسها عبر هذه الأشكال السياسية التي يتم فيها استدعاء الموروث التاريخي واستخدام أيديولوجيا تولد من رحمة للتعبير عن مشكلات الحاضر

> السياسة مكثف لمحتوى اقتصادي ـ اجتماعي ـ ثقافي تأخذ كممارسة أشكالاً عدة

وللصراع على مصالح، عبر السياسة ولو أخذت مساراً عنيفاً، هي اقتصادية – اجتماعية - ثقافية. تساهم في هذا فشل الأشكال السياسية التعبيرية الحديثة وخاصة من خلال تجاربها في الحكم، وليتم إثر ذلك «الاستنجاد بالسماء حين لا تبقى حيلة أخرى لشعب محكوم» وفق تعبير جون لوك، حين وصفه للثورة البيوريتانية في انكلترا 1642-1649 ضد الملك والتي أخذت شكلاً طائفياً: بيوريتان ضد أنجليكان. ولكن هذا الشكل الذي استند إلى حرفية «العهد القديم» عند البيوريتان مع تزمت أخلاقي وتقييد للحريات الاجتماعية ونزعة تسلطية أفرزت ديكتاتوراً (هو أوليفر كرومويل قام بتنصيب نفسه كحامي وحلّ البرلمان عام 1653)، كان ثورة اقتصادية – اجتماعية - ثقافية قادها تجار لندن والمزارعون الأغنياء وسكان المرافئ البحرية ضد سلطة الملك المطلقة، وأريد منها نقل السلطة إلى البرلمان.

في الثورة الثانية (1688- 1689) لم يأخذ الصراع شكلاً طائفياً بل حزبياً: حزب الأحرار (الويغ) ضد حزب المحافظين (التوري)، ولكن تقريباً بالحوامل الاجتماعية نفسها التي كانت قبل نصف قرن، ومن أجل الهدف نفسه: سلطة البرلمان و«الملك يملك ولا يحكم» بعد أن عادت الملكية في عام 1660 وجرت محاولات لإعادة الحكم الملكي المطلق.

في عامي 1995 و2002 نزل ليونيل جوسبان مرشحاً عن الحزب الاشتراكي ضد جاك شيراك بالانتخابات الرئاسية الفرنسية، وقد أصبح جوسبان رئيساً للوزراء بين عامي 1997 و2002. لم يذكر أحد من الفرنسيين بأن جوسبان بروتستانتي حيث البروتستانت لا تتجاوز نسبتهم 1%. في فترة 1562-1598 كانت الأرض الفرنسية مسرحاً لحرب أهلية عنيفة بين الكاثوليك والبروتستانت (الهوغنوت)، وجاء مرسوم نانت عام 1598 لكي يقيم تعايشاً قلقاً بين الطائفتين. في عام 1685 قام الملك لويس الرابع عشر بنقض مرسوم نانت وحرق كنائس البروتستانت وهجّر الملايين منهم، وهم بمعظمهم تجار وبورجوازية صاعدة، إلى جنيف، حيث كانوا أساس المصارف بتلك المدينة السويسرية، وإلى جنوب انكلترا ليكونوا عماد صناعة النسيج هناك. يدل مثال جوسبان على أن فرنسا تجاوزت الطائفية كشكل تعبيري سياسي إلى آخر حديث. في المقابل يدل المثال اليوغسلافي في أعوام 1991-1999 على انفجار شكل دولتي ما فوق قومي - ديني وتذرره إلى أشكاله البدائية، وعلى أن شكل تعبيري سياسي، هو الشيوعية، لم يكن أكثر من إطار تسكيني مؤقت منذ عام 1945 ولم يستطع حل المشكلة القومية هناك والوصول إلى شكل اندماجي ما فوق قومي - ديني في بلد حيث الجماعات ذات طابع قومي - ديني (الصرب الأرثوذكس، الكروات الكاثوليك، مسلمو البوسنة، الألبان المسلمون في كوسوفو).

* كاتب سوري

العرب في مناطق الـ48، بدءاً من عام 1948 وحتى عام 1966. اليوم، وبعد مرور 67 سنة على زرع هذا الكيان في المنطقة، يبدو أنّ حلم بن غوريون، ما زال بعيداً، وأنّ هدفه في إنشاء الأمّة الإسرائيليّة، بات من رابع المستحيلات. فالمعركة الانتخابيّة الأخيرة التي دارت رحاها على مدار ثلاثة أشهر، أخرجت من الزجاجة المارد الطائفيّ بكلّ قوّته وبشاعته. ولم تنته الحرب «الأهليّة» بين أجزاء المجتمع الإسرائيليّ مع إعلان الفوز الساحق لنتنياهو في الانتخابات، بل استمرّت وبوتيرة عاليّة جداً، وكان تتويجها مؤخراً، في برنامج الصباح، بالتلفزيون الإسرائيليّ. بروفيسور أمير حصروني، وهو من أصول غربيّة، وصل إلى الأستوديو، لمُناقشة هذا الموضوع، وكانت في مواجهته صحافيّة من أصول مغربيّة، أميرة بوزغلو. وعندما احتدم الجدال بينهما قال لها حصروني: لم يَكُن سيحدث أيّ شيء، لو بقيت عائلتك في المغرب وتعفّنت هناك. بوزغلو، ردّت عليه قائلةً ببثٍ حيٍّ ومُباشر: مَنْ يتحدث بهذه الصورة عن اليهود الشرقيين هو فاشيّ وعنصريّ وحقير. وأضافت: أنتَ لا تختلف عن الزعيم النازيّ أدولف هتلر. مُقدّم البرنامج طلب منه الاعتذار ولكنّه رفض، واضطر لمغادرة الأستوديو، ولم يكتفِ بذلك، بل قام بنشر «ستاتوس» على صفحته الشخصيّة في موقع التواصل الاجتماعيّ «فايسبوك»، اتهمّ فيه أبناء الطوائف الشرقيّة بأنّهم كانوا السبب الرئيسيّ في فوز نتنياهو. من ناحيته، قال الكاتب والناقد يهوناتان غيفن، وهو أيضاً من أصول غربيّة، إنّ الذين صوتوا لنتنياهو، لا يستحّقون أيّ شيء، بما في ذلك البكاء عندما سيموت أولادهم في المعركة المقبلة التي سيُشعلها نتنياهو. وبسبب هذه التصريحات، تعرّض غيفن لاعتداء جسمانيّ في بيته.

■■■

وفي العادة، يطلّ المارد الطائفيّ خلال الانتخابات، خصوصاً من قبل المتدينين الشرقيين المتزمتين المؤيدين لحركة «شاس» بزعامة أرييه درعي، الذي لم يتردد في اعتماد شعار «الشرقيّ يصوّت للشرقيّ»، في محاولة لاجتذاب أصوات الشرقيين من ناخبي حزب الليكود، والظهور بمظهر الضحيّة لاستدرار المشاعر أمام العلمانيين المتمثلين بحزب «يش عتيد» بزعامة يئير لبيد، والأخير كان قد قال لدرعي، الذي سُجن لسنوات عدّة، بعد إدانته بتلقّي الرشى، «ممنوع أنْ تكون في البرلمان، وعليّ ملقاة مهمّة تأهيلك وإعادتك للمجتمع». علاوة على ذلك، وجّه لبيد رسالة إلى نتنياهو يُطالبه فيها بعدم تعيين درعي وزيراً للداخليّة من نفس المنطلقات. درعي لم يتردد خلال المعركة الانتخابيّة في خوض حرب علنيّة على مَنْ نعتهم بالأشكناز والروس المهاجرين من دول الاتحاد السوفيتي السابق والبيض، الذين يقودون حزب الليكود؟ وجعلوا من حزب الشعب، ليكود، حزباً متعجرفاً وشامخ الأنف يُمثل الروس والبيض، على حدّ تعبيره. بالإضافة إلى ذلك، وقعت النائب من «البيت اليهودي» وهي من أصول أشكنازيّة أييلت شكيد في مطّب التحريض الطائفيّ حين وصفت لاعب الكرة السابق الشرقيّ إيلي اوحانا، الذي اعتزم زعيم حزبها ترشيحه في القائمة، بأنّه «شرقيّ جنتلمان». الأمر الذي دفع الأخير إلى سحب ترشيحه، وهناك العديد من المُحللين في إسرائيل الذين يؤكّدون أنّ فضيحة أوحانا، وهو من أصول مغربيّة، أدّت إلى خسارة حزب «البيت اليهوديّ» مقاعد عدّة، ذلك لأنّ الموافقة على سحب ترشيح أوحانا، كانت بمثابة اعتراف ضمنيّ بأنّ

> يطلّ المارد الطائفيّ خلال الانتخابات خصوصاً من قبل المتدينين الشرقيين

هذا الحزب هو حزب اشكنازيّ فقط، ولا مكان للشرقيين فيه.

■■■

ولكن لماذا العجب، فقد قال قبيل قيام إسرائيل، الشاعر حاييم نحمان بياليك الذي يُعتبر بنظر الصهاينة «الشاعر الوطنيّ الإسرائيليّ»: إنني أكره اليهود الشرقيين لأنّهم يُشبهون العرب. كما أنّه في أوائل الثمانينيات، قال الفنان دودو طوباز، وهو أشكنازيّ، في اجتماع جماهيريّ شارك فيه مئات الآلاف بمدينة تل أبيب تأييداً لحزب العمل، إنّ اليهود الشرقيين هم مجموعة من الرعاع، الأمر الذي أثار ضجةً كبيرةً، وساهم من حيث يدري أوْ لا يدري، في منع حزب العمل من الفوز في الانتخابات. وعاد الفنّان الأشكنازيّ يائير غاربوز، في الانتخابات الأخيرة وقال: لن نرضي بأنْ يحكمنا مَنْ يعيشون عبادة الحجاب والتعويذة، في إشارة إلى اليهود الشرقيين. وإذا أضفنا لشرذمة المجتمع الإسرائيليّ، التهديدات الخارجيّة، المتمثلة في حزب الله وإيران، فإننّا نصل فعلاً إلى نتيجة بأنّ إسرائيل هي أوهن من بيت العنكبوت. ففي حرب العام 2006 فرّ أكثر من مليون إسرائيليّ من الشمال بسبب الكاتيوشا «البدائيّة»، فماذا سيحدث، إذا اندلعت مُواجهة جديدة مع الحزب، التي باتت ترسانته العسكريّة، بحسب وزير الخارجيّة الإسرائيليّ، المأفون أفيغدور ليبرمان: معظم الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسيّ (الناتو) ليس لديها ربع عدد الصواريخ المتوفرّة لدى حزب الله، وأنّه أقوى المجموعات الإرهابيّة القائمة من حيث قدراته العسكريّة وكميّات الأسلحة المتوفرّة له، إنّه أقوى من تنظيم الدولة الإسلاميّة والقاعدة معاً.

أمّا بالنسبة لإيران، فأقطاب دولة الاحتلال يعرفون جيّداً إنّه إذا حصلت على القنبلة النوويّة، فإنّ الصهاينة، لن يترددوا، ولو للحظةٍ واحدةٍ، في الفرار إلى الدول التي استُجلبوا منها. لكنّ سيّد المُقاومة رغم صحة قوله قال نصف المعادلة، لأنّ قوّة بيت العنكبوت آتية من طبيعة الحكّام العرب الذين أغلبهم يُشكّلون رديفاً صهيونياً عربيّاً لدعم إسرائيل.

* كاتب عربي - فلسطين